

مفهوم الشعر ووظائفه عند رمضان حمود

توطئة:

ظهر الاتجاه الرومانسي في الجزائر على يد الشاب اليفاع "رمضان حمود" [1906-1929] وقد يكون حسب يوسف ناوري " أول شاعر رومانسي ي في سماء المغرب العربي، فقد تمثل نظريا مفاهيم الرومانسية ودعا إلى تحرير الممارسة الفردية من القيود التي كبلتها قروننا، والحاجة إلى التعبير عن صوت الأنا وإحساسات الفرد حيث يكون الشعر وحي الضمير وإلهام الوجدان وقلب الطبيعة النابض". فحمود رمضان قدم لنا مفهوما جديدا للشعر على أنه من الشعور، وكان ينطلق من هذا المفهوم للتجربة الشعرية ويريد أن يتحول من اهتمامه بالصنعة الشكلية إلى الاهتمام أكثر بالمضمون؛ مضمون يستوعب واقع الأمة العربية، يتغنى بالأمها وآمالها، وأن الأولى بالشعراء أن ينصرفوا عن هذا الشعر الذي يخدم الخواص وأرباب القصور، إلى شعر يقود الجماهير ويهتم بقضاياهم، وهذا راجع إلى اتصاله بالرومانسية الفرنسية وروادها، وترجمته لبعض أعمالهم أمثال "لامارتين" و"فيكتور هيغو" كما تأثر بالمشركين أيضا أمثال "جيران خليل جبران" و"أمين الريحاني" خاصة عندما دعوا إلى الشعر المنثور.

لم يعمر رمضان حمود إلا ثلاثة وعشرون عاما ولكنه كان كاتباً بارعا وصحفيا ماهرا وشاعرا رائدا من الذين نفثوا أنفاس الثورة العارمة في الشعر

مفهوم الشعر عن رمضان حمود:

لقد ثار رمضان حمود على القيم الشعرية السائدة على مستوى الشكل أو المضمون قائلا: "قد يظن البعض أن الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفى، ولو كان خاليا من معنى بليغ، وروح جذابة، وأن الكلام المنثور ليس بشعر، ولو كان أعذب من الماء الزلال وأطيب من زهور التلال، وهذا ظن فاسد". وعاد حمود إلى أقدم مصدر ليرهن على فكرته فيقول: "ولو أنهم قصدوا بالشعر الوزن والقافية، لما قالوا في بداية الدعوة الحمديّة _ على صاحبها أفضل السلام _ أن القرآن شعر، وأن صاحبه شاعر مجنون. مع علمهم أنه كلام مرسل، لا أثر للوزن والقافية فيه، وأن صاحبه لم يسمع منه بيتا في سوق من أسواقهم، ولا في مجتمع من مجتمعاتهم، ولا تحدث عنه بذلك".

لقد وقف ثائرا على قدسية الوزن والقافية حيث تكمن الشعرية في النثر كما تكمن في الشعر، وحاول الناقد أن يبرهن على ما قاله بإتيانه بمقطوعات شعرية لا وجود للقافية فيها وأخرى لا أثر للوزن فيها ولكن مع التزام القافية، واهتم أيضا بشكل القصيدة ومضمونها معا، فهما عنده متكاملان ملتحمان، لا يمكن الفصل بينهما. ومن ثم يظهر أن له رأيا واضحا من عمود الشعر يلتقي مع ما ذهب إليه العقاد وميخائيل نعيمة مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، والذين يلتقون جميعا مع ما سنه المذهب الرومانسي الغربي الذي لخص مفهوم الشعر في التعبير عن كنه الحقيقة وفق ما تتراءى للنفس البشرية التي تنطلق من جوهر الحياة، وتنشد الثورة والتغيير من أجل بلوغ الحقيقة المنشودة".

انشغل "رمضان حمود" بالشعر انشغالا كبيرا وجعله مجالا صادقا للإبداع والفن، يعبر فيه عن صدق التجربة والمعاناة، فالشعر في نظره هو "النطق بالحقيقة العميقة الشاعر بها القلب، والشاعر الصادق قريب من الوحي" وأن يقول الشاعر بيتا صادقا خير من ألف مجلد، لأن العبرة بالإجادة والتحقيق لا بالإكثار والتلفيق.

وحارب الغيرية التي شاعت عند الشعراء الكلاسيكيين الذين اهتموا بالموضوعات الغريبة عن ذواتهم ووجدانهم وأكد على الصدق الفني في الشعر كما ذكرنا هذا في قوله سابقا.

وبهذا كان شعره تعبيرا نابعا عن مواقف ذاتية نابعة عن معاناة وتجربة مما أضفى عليها ميزة الحرارة العاطفية والصدق، فقد جعل الذاتية والصدق الفني مقياسين هاميين وضروريين لنجاح العمل الشعري، وقد عبّر "رمضان حمود" بصدق عن واقع الأمة ومعاناة الشعب المقهور، وكانت ذاتيته متفاعلة مع الوجدانية الجماعية، وفضل أن تكون لغته متماشية مع العصر، متطورة معه، سهلة المتناول من طرف المتلقين لها، بسيطة تصل إلى النفس الانسانية بدون جهد أو تكلف. يقول "لا يسمى الشاعر شاعرا عندي إلا إذا خاطب الناس باللغة التي يفهمونها بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة اليابسة، لا أن يكلمونا في القرن العشرين بلغة امرئ القيس وطرفة المهلهل الجاهليين الغابرين". ومن السياق العام لهذا النص، يتضح لنا أن الناقد يدعو إلى عدم التصنع والتكلف. ويؤكد لنا في نص آخر أن نجاح اللغة الشعرية في تأدية دورها مرهون بابتعاد الشعراء عن مزلقين اثنين وهما التكلف والتنطع في اللغة. ويخاطب من يظنون أن الشعر مجرد وصف للألفاظ وتنميق وتزويق لها وتقطيع للأوزان، فيقول:

فقلت لهم لما تباهاوا بقولهم
ألا فاعلموا أن الشعور هو الشعر
وليس بتنميق وتزويق عارف
فما الشعر إلا ما يحن له الصدر

فالشاعر هنا يهاجم المتكلفين الذين لا يعبرون عن سابقة أدبية أو عن قارئ يحب الجمال ويهفو إليه، وإنما ترى في الشعر لغة صعبة وتكلفا.

يركز "رمضان حمود" على الإحساس الصادق ويجعله أساس نجاح التجربة الشعرية، فلا ينجح الشاعر في نظمه ويؤثر شعره في السامع إلا إذا كان قد عبّر عن عاطفته بصدق وإخلاص. فالأدب الذي "لا يصدر عن نفس حساسة لا يتسرب إلى أعماق النفوس المنيرة الحية، بل يخلد طويلا، ولا يلبث أن يقصي عليه سلطان النسيان والإهمال، وحذر حمود الأديب من أن يقدم على الشعر والأدب بغرض النحو والصرف أو العروض والقوافي أو البلاغة والمادة اللغوية... ما لم يسعف كل ذلك في نفسه وازع قوي نحو التجربة الأدبية، فحمود لم يخرج عن السائد والمألوف الذي أتى به المذهب الرومانسي الذي أعطى أهمية عظيمة للعاطفة في التجربة الفنية.

وقد تأثر بشابلن "الذي أكد بأن الشعر هو "النطق بالحقيقة، تلك الحقيقة الشاعر بها القلب"، والشاعر ذو فكر ثاقب، وعقل صائب، وذوق سليم، وهذه المزايا الثلاث لا يتوفر عليها إلا شاعر متمكن، لذا اعتبر "رمضان حمود" المقلدين، وعبيد التقليد_ كما سماهم _ لا يطرب لهم سامع ولا يحرك لهم ساكن.

فالشعر عنده عبارة عن "تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف تقذفه النفس لا دخل للوزن والقافية في ماهيته، وغاية أمرهما أنهما محسنات لفظية، اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى، كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة وملوحة، وإنما حفظا وصيانة من التلاشي والسيلان. وفي موضع يؤكد الشاعر والناقد "رمضان حمود" على ضرورة توفر الموهبة الشعرية عند الشاعر، فيرى: "بأن الشعر ليس صناعة ولا بضاعة، وإنما إلهام وجداني ووحى الضمير، وموهبة مخفية في ذات الشاعر تولد مع ميلاده وتظل كامنة فيه، فهي في اختفائها كاختفاء النار في الحجر، إلى حين بروزها.

قارن "رمضان حمود" بين الشاعر والمصور، في الاهتمام بالتدقيق في النظر إلى الشيء المصور حيث يرى "بأن كلاهما أجير للفن والجمال، فهما مدينان بالإجادة والتدقيق في النظر، والبحث، فهذا في المحسوسات وذلك في المعنويات فكما أن المصور لا

يقدر أن يتقن صورته إلا إذا تزود بجانب وافر من الشعور، والعالم، وكان الشكل والمنظر الذي يريده أمامه يراه بعينه، فكذلك الشاعر لا طاقة له في امتلاك العقول، والأخذ بأزمة النفوس، إلا إذا أجاد تصوير تلك العواطف الهائلة التي تقوم في ميدان صدره الرحب عندما يريد أن يعبر للسامع عن خواطره الخاصة أو العامة، لا مجرد تنميق وتزوير، وتكلف مشين، وتعمل بارد، وكذب فادح، فإن هذا مما يُنقص من قيمة الشعر والشعراء في الأمة النبيلة".

فالشعر عنده شعور، وإحساس صادق، ربطه بالطبيعة، ويتصدى لمن يعتبر أن الشعر وزن وقافية قائلاً:

فقلت لهم لما تباهاوا بقولهم ألا فاعلموا أن الشعور هو الشعر
وليس بتنميق وتزوير عارف فما الشعر إلا وجود به الصدر
فهذا خريير الماء شعر مرتل وهذا غناء الحب ينشده الطير
وهذا زئير الأسد تحمي عرينها وهذا صفير الريح ينطحه الصخر
وهذا قصيف الرعد في الجو ثائر وهذا غراب الليل يطرده الفجر
فذاك هو «الشعر الحقيقي» بعينه وإن لم يدقهُ الجأمد الميثُ الغرُّ

أورد "رمضان حمود" مجموعة من التعاريف حول "ماهية الشعر والشاعر" في مقالة (الشعر والشاعر)، والملاحظ أن هذه التعاريف سيطر عليها عنصران هما: الطبيعي والنفسي (روحانية النفس، وحب الطبيعة)، ومنها قوله:

— الشعر وحي الضمير، وإلهام الوجدان...

— الشعر مرآة، تنعكس عليها أشعة الحب والجمال.

— الشعر هو قلب الطبيعة النابض.

— الشعر نفس وهدية، تقدمها الطبيعة الهادئة إلى القلوب الكسيرة.

وظيفة الشعر عند رمضان حمود:

رفع "رمضان حمود" شأن الشعراء ومكانتهم، في تطوير مجتمعاتهم بقوله:

— الشعراء بذور الحياة ومؤسسو النهضات.

— الشاعر لا ينتصر لحزب دون حزب آخر، لكن يجب أن يكون أداة إصلاح وأدب للجميع.

— الشعراء روح الشعوب فإذا نصحوا لها سارت وتقدمت، وإذا خانوها فالسُّقوط والاضمحلال حظها، وأما السبيل

الذي يسلكه شعرائنا وأدبائنا اليوم مملوء بالتَّحذلق والتَّشدد بالألفاظ الضخمة الرنانة، والسعي وراء إرضاء الخواص فغاياته الويل والبولار

— ويصل به الحماس إلى حد اعتبار الشعر الذي لا يُحرك نفوس العامة ويُذكرها في واجبها المقدس ووطنها المفدى، هو خيانة كبرى، وخنجر مُسمَّم في رقاب المجتمع الشريف". وهذا ما دفعه إلى خوض ثورة عنيفة ضدَّ الشعراء المشاركة الذين يعتمدون على التقليد والتَّبعية ذلك لأنهم «ارتدوا ثوب الجُمود والتَّقليد، ونسوا واجبهم الوطني الشريف، ومألوا إلى اللُّهو والتَّرف والمجون، فنسجت العامة على منوالهم فمات الشُّعور القومي، والميزة الشَّرقيَّة، وتلبَّدت عُيُوم الجُبْن وحبَّ الذات على العقل، ومسَّخت النُّفوس، وعمَّ الوَبال جميع الطبقات".